

سورة الطارق

هذه السورة، سورة (الطارق) سميت بهذا الاسم، لورود لفظ (الطارق) في مستهلها. وهي ذات

مقاصد عقدية متعددة :

المقصد الأول: الإيـان بالبعث.

المقصد الثاني: الإيـان بالملائكة.

المقصد الثالث: الإيـان بالقرآن.

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلَیَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥

خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ ﴾: استهل الله تعالى هذه السورة بالقسم، كما قال في أختها ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

الْبُرُوجِ ۝١ ﴾ [البروج: ١]. والسمااء خلق عظیم، وصفها فیما مضى -ی بأنها (ذات البروج). وهاهنا قرن

ذكرها بـ(الطارق). والطرق في اللغة: الإتيان ليلاً. يقال: "طرق الرجل أهله" يعني أتاهم ليلاً.

وفي الحديث: نهى النبي ﷺ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا متفق عليه^(١). فقد أقسم الله تعالى بالسمااء، وما يطرق

فيها، أي ما يأتي ليلاً، والذي يأتي ليلاً أمورٌ كثيرة، منها: ما فسر الله تعالى به هذه اللفظة، فقال: ﴿ وَمَا

أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ ﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ ﴾، لأنه يأتي ليلاً. وهذا قسم عظیم؛ لأن السمااء عظمة، وما خلق الله

تعالى فيها عظیم!.

كما قال: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ ﴾: ما أعلمك. وهذا الاستفهام إما أن يكون للتعظيم، وإما أن يكون

للتشويق، أو لهما معاً وهذا أولى، أن يكون للتعظيم كما قال الله تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا

أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾ [الحاقة: ١-٣]، ﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾

[القارعة: ١-٣]. وقد يكون للتشويق، لكي يتهيأ الذهن لسماع الجواب، لاسيما أن الجواب حاضر.

(١) صحيح البخاري (1706)، صحيح مسلم (1928).

﴿التَّجْمُ الثَّقَابُ﴾: هو كل كوكب مضيء متقد؛ وصفه بقوله: (الثاقب) لأنه يثقب الظلام بضوئه، فإذا نظرت إلى قبة السماء، في الليلة الظلماء، تجد أن هذه النجوم المتألثة، أشبه بالثقوب، في هذه القبة السوداء. فلأنه ثقب ظلام السماء، سمي ثاقباً. وقيل: أن هذا الوصف يختص بنجم الثريا فقط؛ وذلك لشدة لمعانها وتوهجها. والثريا: نجم معروف في السماء، بل هو في الحقيقة مجموعة نجوم، أشبه ما تكون بعنقود العنب، مجتمع بعضها إلى بعض.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (٤): (إن) مخففة من الثقيلة، اسمها محذوف تقديره "إنه"، وهي تفيد النفي. ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: هذه هي القراءة المشهورة (لَمَّا) بالتشديد، وهي بمعنى (إلا). فيكون المعنى: ما من نفس إلا عليها حافظ. وجملة ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم. ونفس: نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم. والمقصود بالنفس: جنس نفوس بني آدم. وقرأت بالتخفيف: (لَمَّا) وعلى هذا تكون "ما" مزيدة. والحافظ: هو الملك الذي يحفظ على تلك

النفس أعمالها، من خير، أو شر، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَنِينًا﴾ (١١) ﴿الانفطار: ١٠-١١﴾. ويمكن القول إنه الملك الذي يحفظها، كما قال ربنا ﷻ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٢]. فهؤلاء المعقبات، هم من ملائكة الرحمن، يحفظون الإنسان عما أراد الله تعالى أن يحفظه منه، فإذا جاء قدر الله، خلو بينه وبينه. فالحفظ يتناول حفظ الأعمال؛ بمعنى كتابتها، وضبطها، ويتناول أيضاً حفظ الإنسان من أن يقع عليه الأذى.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦): (فلينظر): يحتمل أن يكون النظر الحسي لأن المطلوب النظر إليه ممكن، وهو هذا المني الذي منه خلق. لكن الأقرب والله أعلم، أنه النظر العلمي، بمعنى: فليتأمل ويعتبر؛ لأن المنظور إليه معهود في الأذهان، لا يحتاج أن يذهب ليبصره، وهو الماء الدافق. ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾: يعني من أي شيء خلق. وهذا شروع في إقامة الحجة على منكري البعث. ويمكن أن نفسر "الإنسان" في هذا الموضع بأنه المنكر للبعث، وإن كان يصلح المقام للاعتبار لكل أحد. فإن المؤمن لو تأمل في أصل خلقه لزد بذلك إيماناً.

إنها مسافة هائلة بين هذه النطفة المذرة، التي لا تكاد ترى إلا بالمجاهر المكبرة، وبين الإنسان الكامل الخلقة! يتحول الحيوان المنوي، بعد أن يلحق البويضة الأنثوية، إلى خلية مخصبة، ثم تشرع هذه الخلية بالانقسام المتتالي، حتى تصبح نطفة، فعلقة، فمضغة، ثم يخلق الله عظماً، ويكسو العظام لحماً. وترفق هذا الخلق العجيب، حتى يخرج كائناً يدب على وجه الأرض! لا ريب أن هذا من دواعي زيادة الإيمان. فلهذا يصلح أن يكون الخطاب موجهاً للإنسان الكافر، المنكر للبعث، لإقامة الحجة عليه في إثبات البعث. ويصلح أن يكون دعوة عامة للتفكير في عظيم خلق الله عز وجل.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ الْكَافِرَ الْمُنْكَرَ لِلْبَعْثِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَاجِهُهُ فِي مَكَّةَ، مِنْ كِفَارِ قُرَيْشٍ، ﴿رِيمٌ

خُلِقَ﴾؟ يأتي الجواب مباشراً، لأن الجواب محل تسليم من الجميع، لا أحد ينكره ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ

﴿٦﴾ وهم مقرؤون أن الله تعالى خالقه. والماء الدافق هو المنى. وسمي دافقاً لكونه ذا اندفاق، واندفاع. وهذا مما يميز هذا الماء العجيب، أنه يخرج دفقاً بلذة، ليبلغ محله في الأرحام.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ﴿٧﴾: الصلب: على قول جمهور المفسرين، هو فقار الرجل، يعني عموده

الفقري، أي ظهره. والترائب: على قول جمهور المفسرين، هي عظام الصدر من المرأة. و عبر بعضهم بأنها موضع القلادة. فدللت الآية على أنه يخرج من بينهما، ولا يلزم من هذا أن يكون خارجاً من ذات العظم، عظم الظهر، أو أضلاع الصدر. وذهب بعض المفسرين إلى أن الترائب هي أطراف الرجل، يعني يديه ورجليه ولا تتعلق بالمرأة، لأن الماء إنما يخرج دفقاً من الرجل. فكأن هذا الماء الذي يخرج من الرجل يستل من جميع جسمه؛ من فقاره، وأطرافه، ولا شك أن العلم الحديث قد يساعد في إيضاح هذا المعنى، وقد لا يبلغ العلم الحديث التفاصيل الدقيقة في دلالة الآية، لكن المعلوم لدى المشتغلين بعلم وظائف الأعضاء، المسمى بـ(الفسيولوجي) أن هذا الماء يتكون في الخصيتين، ثم يتجمع في موضع معين. وأما الأنثى فإنه يتكون ماؤها في المبيضين، فيتم إنضاج البويضة، فتنزله من مبايض المرأة إلى الرحم، عبر قناة (فالوب)، مرة في الشهر. ومن حكيم صنع الله ﷻ، أن جدار الرحم يتهيأ بإذن الله تعالى لاستقبال الحمل المتوقع، فتتهبط هذه البويضة، وقد امتلأ جدار الرحم بالشعيرات الدموية، وصار ثخيناً مشبعاً بالغذاء، فإن قدر خلال ثمان وأربعين ساعة أن يقع لقاء بين

الزوجين، ويلتقي ماء الرجل الذي يحمل الحيوانات المنوية، مع البويضة، في رحم الأنثى، فإنه يسبق واحد من هذه الحيوانات المنوية إلى البويضة، فيقع التلقيح. فتغرس تلك البويضة الملقحة في جدار الرحم، وتتغذى على ما اختزن في هذا الجدار من الأوعية الدموية، وتتوالى الانقسامات الخلوية، حتى تكبر، وتعلق في جدار الرحم، فتسمى علقة، ثم تمر ببقية المراحل، كما هو معروف في علم الأجنة. كل هذا بتقدير دقيق، وحكمة بالغة. ومن العجيب أن هذه البويضة، تحمل المورثات الجينية، من الأنثى كما إن الحيوان المنوي يحمل المورثات الجينية من الذكر. ومعلوم أن كل خلية بشرية تحتوي ستة وأربعين مورثاً "جين"، إلا الخلية المنوية، فإنها تحتوي نصف العدد، فقط. فينحدر من المبايض بويضة تحمل ثلاثة وعشرين مورثاً، ويقذف الذكر حيواناً منوياً يحمل ثلاثة وعشرين مورثاً، فيصبح المجموع ست وأربعون. هذه الخلية الجديدة، هي (الأمشاج) كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ [الإنسان:٢] والأمشاج تعني

الأخلاق، لكونها خليطاً من ماء المرأة ماء الرجل، فيقع الشبه كما يريد الله ﷻ.

هذه العملية التي يلفت الله الانتباه إليها لا يبصرها الغافلون. إن الناظر بعين البصيرة، ولو كان عامياً، أمياً، لا يقرأ، ولا يكتب، لو أمعن النظر، لاعتبر في هذا الماء الذي يقذف في الأرحام، كيف يؤول إلى إنسان سوي، حي، سميع، بصير. هذه المسافة بين هذا الماء الذي تشتمز منه النفوس، وهذا الخلق الإنساني السوي، من دواعي النظر، الذي يوجب للإنسان إجلال الخالق، وطأطأة الرأس خضعاناً له سبحانه وبحمده. ثم لا ينقض -ي العجب كيف ينكر هذا الإنسان البعث! أبعدها هذا المشهد العجيب، يا معشر المشركين، تقولون: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس:٧٨].

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾: يعني الذي خلق هذا الإنسان، وكونه على هذه الصفة قادر أن يعيد خلقه

مرة أخرى يوم القيامة. فهذا من أعظم دلائل البعث، ومرجع الضمير في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ إلى الرب سبحانه وتعالى، ومرجع الضمير في قوله: (عَلَى رَجْعِهِ) إلى الإنسان. هذا هو الأقرب. وقال بعض

المفسرين: أن مرجع الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ أي إلى الماء، فيكون معنى ﴿لَقَادِرٌ﴾: أنه قادر أن

يعيد الماء إلى الموضع الذي خرج منه. يعني قادر أن يعيده إلى الإحليل، أو يعيده إلى الصلب،

والترائب. ولا شك أن الله تعالى قادر على ذلك، لكن سياق الآيات يؤيد القول الأول، وهذا ما رجحه ابن جرير رحمه الله^(١)، لأن المقام مقام إثبات البعث، ولأن هذا الأمر، مما لم يوقعه الله ﷻ، وهو إعادة هذا الماء في الإحليل، أو إلى الصلب أو الترائب. فلا وجه للإتيان بالجملة المؤكدة هاهنا.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: إقسام الله تعالى بمخلوقاته. ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ١ .

الفائدة الثانية: كمال رقابة الله، وحفظه لنبى آدم .

الفائدة الثالثة: إثبات الملائكة الكرام، وبيان بعض أعمالهم، كالحفظ .

الفائدة الرابعة: بيان دليل من دلائل البعث، وهو أن القادر على الخلق قادر على الإعادة. كما قال الله

تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٠٤] فهو دليل عقلي حسي، على إمكانية البعث.

(١) تفسير الطبري (297/24-298).